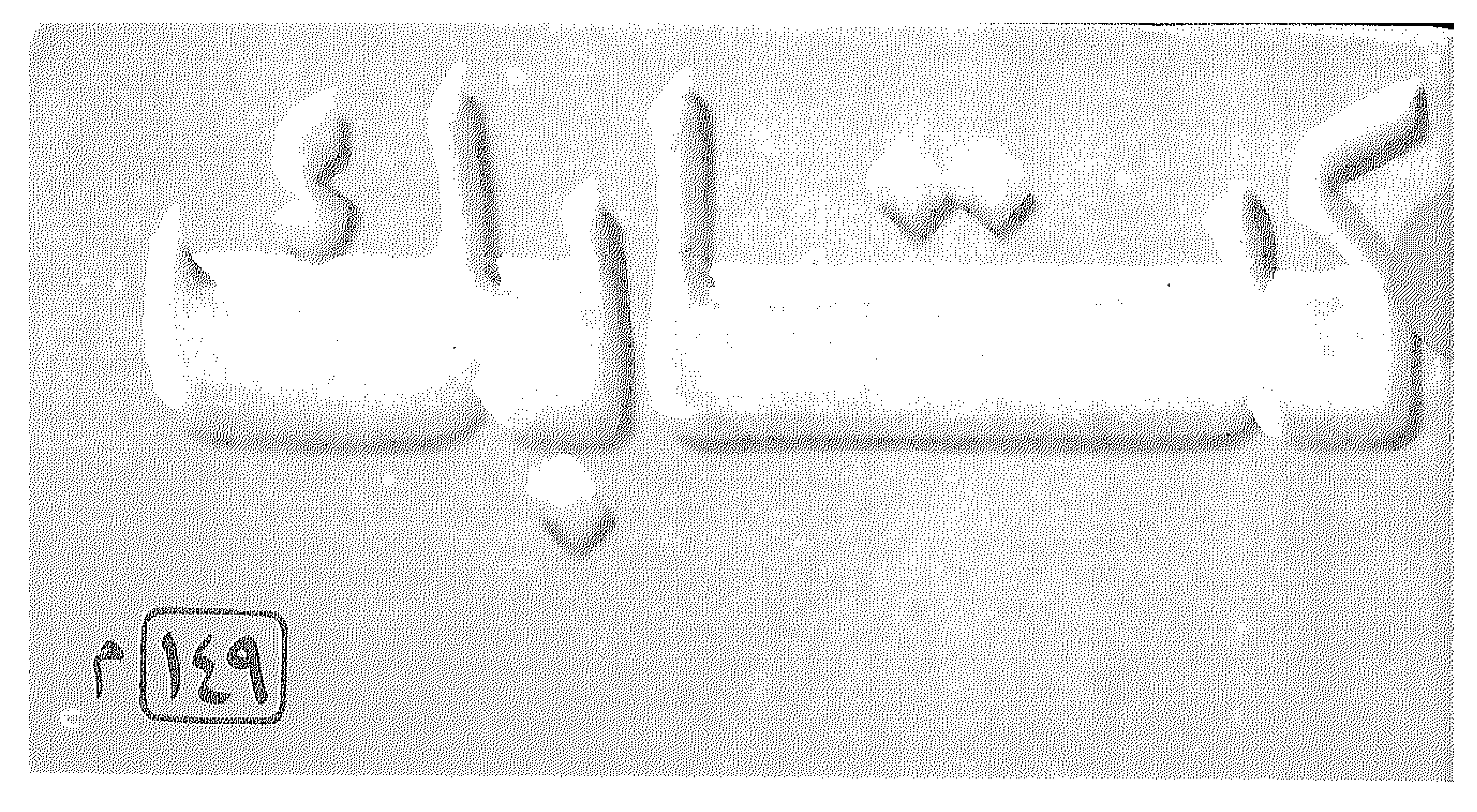
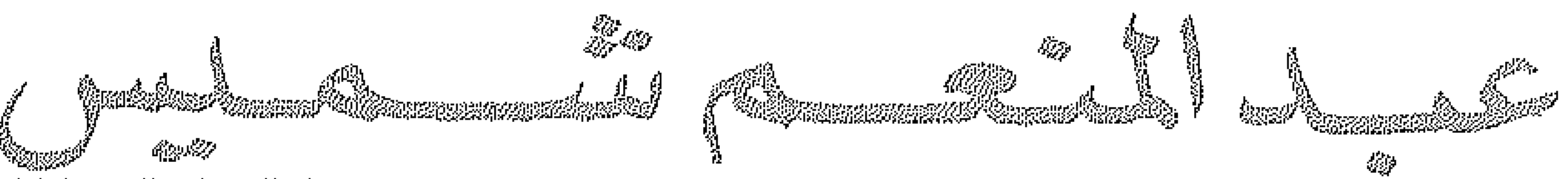
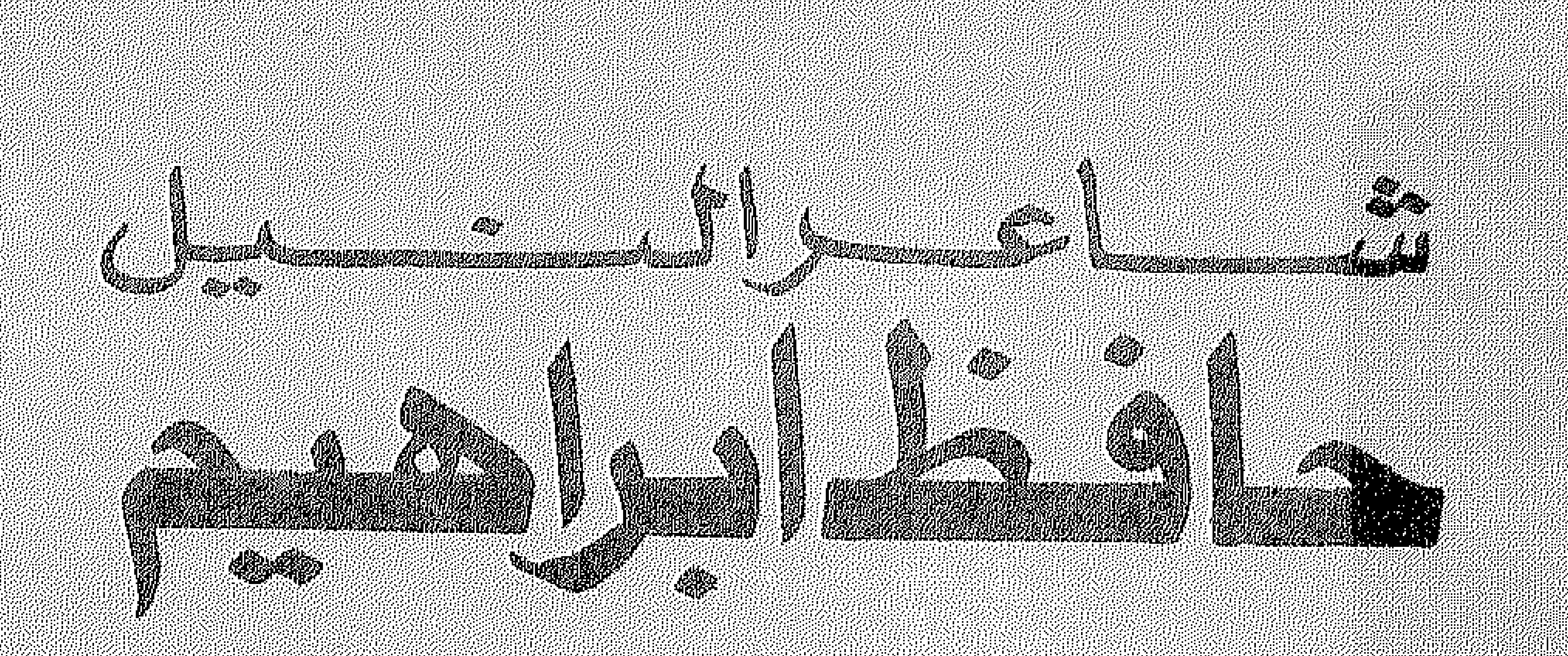
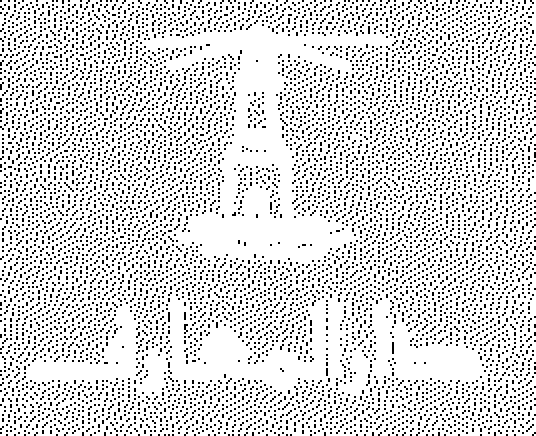

كتابك
١٤٩ م


عبد المنعم شميس


شاعر النيل
حافظ ابراهيم


دار المعارف

اهداءات ٢٠٠١

لواء طبيب / عبد الحميد سلطان

الإسكندرية

كتابك ١٤٩ م

رئيس التحرير **أنيس منصور**

عبد المنعم شميس

شاعر النيل

حافظ ابراهيم



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

تاريخ حياة الشاعر

● ولد فى سنة ١٨٧٢م فى ذهبية كانت راسية على شاطئ النيل ، بالقرب من قناطر ديروط حيث كان والده المهندس إبراهيم فهمى أحد المهندسين المشرفين على هذه القناطر .

● كانت والدته السيدة هانم بنت أحمد البورصة لى من أسرة تركية محافظة عريقة تسكن حى المغربلين بالقاهرة .

● عاش فى كنف أبيه أربع سنوات ، مات بعدها الوالد ، فعادت به أمه من ديروط إلى بيت أسرتها ، وتولّى أمره خاله محمد نيازى الذى كان مهندسًا بتنظيم القاهرة .

● أدخله خاله المدرسة الخيرية بحى القلعة بالقاهرة ، ثم التحق بالمدرسة القربية الابتدائية ، ثم دخل مدرسة المبتديان ، ثم المدرسة الخديوية الثانوية .

● نقل خاله إلى طنطا مهندسًا للتنظيم . فذهب حافظ ووالدته وأخته عائشة مع خالها ، والتحق حافظ بمدرسة ثانوية بطنطا ، ولكنه انصرف عن التعليم . وكان يذهب إلى المسجد الأحمدى ليجلس فى حلقات الدرس .

● اشتغل فى طنطا بمكاتب بعض المحامين ، واشتغل بالمحاماة .

- ألحقه زوج أخته عائشة الضابط محمد كافى بالمدرسة الحربية .
- تخرج حافظ فى المدرسة الحربية سنة ١٨٩١ ضابطًا فى الجيش ، ثم نقل إلى البوليس ، ثم أعيد للجيش وخدم فى السودان مايقرب من السنتين ، وأحيل إلى الاستيداع .
- فى سنة ١٩٠٦ بعد عودته من السودان ، تزوّج من أسرة بحى عابدين بالقاهرة ، ولكن زواجه لم يدم أكثر من أربعة شهور ، وتوفيت والدته سنة ١٩٠٨ .
- كان يعيش مع زوجة خاله نيازى بك الست عائشة هانم ، وقد توفيت قبل وفاته بثلاث سنوات ، وكانت تدير بيته وترعى شئونه .
- عين رئيسًا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية فى سنة ١٩١١ بمساعدة المرحوم أحمد حشمت باشا وزير المعارف ، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ حيث أحيل للمعاش .
- طلب له حشمت باشا رتبة البكوية من الدرجة الثانية ، فأنعم عليه بها سنة ١٩١٢ ، ثم أنعم عليه بنيشان النيل من الدرجة الرابعة .
- توفى فى بيته الصغير بضاحية الزيتون إحدى ضواحى القاهرة فى الساعة الخامسة من صباح الخميس ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .
- كان يحب الحياة فى الضواحى . . . وسكن فى الجيزة وحلوان والزيتون .

٥

سعيد الدنيا . . سعيدالآخرة :

فى كل ليلة يسمع آلاف الناس صوتًا رقيقًا من إذاعة القاهرة هو صوت السيدة صفية المهندس تقدّم برنامج (لغتنا الجميلة) ببيت من الشعر يقول :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن   فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

وقد لا يعرف كثيرون من السامعين صاحب هذا الشعر . . إنه شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم الذى كتب عليه البؤس فى حياته وبعد موته وكأنه يطارده ، مع أنه من أعظم شعراء العصر الحديث ، وقد اقترن اسمه دائمًا باسم أمير الشعراء أحمد شوقى ، لا يكاد ينفصل عنه ، حتى بعد وفاتهما بخمسين سنة ، وعندما أرادت وزارة الثقافة الاحتفال بهذه الذكرى الأدبية جمعت الشاعرين معًا لأنهما رحلا رحلة الأبد فى سنة واحدة ، فقد توُفى حافظ فى ٢١ يوليو ١٩٣٢ ، وتوْفى شوقى فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٢ . . وتقرر الاحتفال فى أكتوبر ١٩٨٢ ، وكان على حافظ أن ينتظر شوقى حتى فى ذكراه .

وكان حافظ يقول :

– ظل الناس يقولون أكثر من عشرين سنة شوقى وحافظ كما يقولون (بيض وسميط) .

وعندما أراد طه حسين الحديث عن الشعر المصرى الحديث ، جمع

ما كتبه عن حافظ وشوقى فى كتاب واحد .

بل إن جريدة الأهرام التى لقبت شوقى فى سنة ١٨٩٩ بلقب (أمير الشعراء) ، ووصفت قصائده بالشوقيات ، هى التى لقبت حافظ إبراهيم بلقب (شاعر النيل) كما يقول رئيس تحريرها داود بركات .

وهذا الاقتران بين اسمى شوقى وحافظ يشبه الاقتران بين اسمى شاعرى الألمان . . (يوهاث ولفجانج فون جوته) . . و (فردريش شيللر) المتعاصرين ، والمتعانقين فى تمثال واحد منصوب فى الميدان أمام مسرح مدينة فايمار التى يطلق عليها اسم (أثينا الألمان) ، بل إنهما يرقدان حقًّا فى مقبرة واحدة عظيمة البنيان فى هذه المدينة .

وكان جوته وزيرًا ثريًّا أرستقراطيًّا مثل شوقى ، وكان شيللر صعلوكًا بائسًا فقيرًا مثل حافظ ، حتى قيل إن جوته هو الذى بنى له بيتًا إلى جوازه فى مدينة (ڤايمار) حتى لا يفارقه ، برغم مشاكسات شيللر ومناكفاته مما كان يحتمله جوته فى حب شديد ، فيتغافل حتى عن سقطات العبقرى الشاعر شيللر ، الذى ترك مدينة (ڤايمار) مرة وذهب إلى قرية مجاورة ليشتغل مدرسًا فسعى إليه الوزير جوته واستعاده مرة أخرى .

ولكن لقاء حافظ وشوقى كان مختلفًا ، وكان التنافس بينهما قد وصل إلى أبعد الحدود ، كما أن شهرة شوقى قد بلغت مبلغًا عظيمًا ، غير أن اقتران اسميهما ظل قائمًا حتى اليوم ، ويبدو أنه سيظل قائمًا مثل اسمى .

جوته وشيللر .

ووجه الاختلاف فى هذه المقارنة أن شوقى ظل على نعمته وثرائه وأرستقراطيته ، وأن حافظاً ظل على بأسائه وفقره وقلة حظه ، حتى بعد الموت ، فلم يجمع آلهة الشعر والعبقرية بينهما فى تمثال واحد أو مسرح واحد مثل (جوتة وشيللر) .

وعند وفاة حافظ تكونت لجنة من أصدقائه وعقد اجتماعها الأول فى دار (السيد عبد الحميد البنان) صديق حافظ وأحد أثرياء التجار فى القاهرة ، وقررت جمع آثاره ونشرها ، وإقامة حفل لتأبينه ، ولم يتم شىء من ذلك ، وكتب زكى مبارك فى ٩ ديسمبر ١٩٣٢ .

« أقيمت لشوقى حفلتان فى مصر . وإن شئت فقل ثلاث حفلات ، ولم تقم لحافظ حفلة واحدة ، وسبب ذلك أن أصدقاء حافظ اجتمعوا يوم وفاته وقرروا طبع ديوانه ووضع كتاب عن شعره ونثره ، ثم اجتمعوا مرة ثانية فأجلوا الاحتفال بذكراه إلى نضج العنب ، فلما نضج العنب اجتمعوا وقرروا الاحتفال بذكراه إلى نضج التين . وصدق من قال : سعيد الدنيا سعيد الآخرة . وكذلك كان حظ حافظ بجانب حظ شوقى فى دنياه وأخراه » .

وفى خريف سنة ١٩٣٢ وبعد وفاة الشاعرين بدا لإحدى شركات السجاير أن تخرج علبة باسم شوقى ، وعلبة باسم حافظ ، فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة قروش وثمن العلبة الثانية أربعة قروش ، حقاً إن

سعيد الدنيا سعيد الآخرة كما يقول المصريون .

ومن المفارقات العجيبة أن يكون حافظ أول شاعر مصرى تقيم له الدولة مقبرة . ثم تظل هذه المقبرة مجهولة حتى اليوم . فقد لاحظ أحد محافظى القاهرة أن شاعر النيل مدفون فى مقبرة مفردة فى عرض الطريق . وكان هذا المحافظ وهو المرحوم محمد صدقى باشا رئيساً للجنة الجبانات . فأقام لحافظ مقبرة فاخرة فى جبانة السيدة نفيسة رضى الله عنها . ولكن المقبرة ظلت مجهولة . وقد عرفتها مصادفة . لأنها فى نفس الشارع الذى أقمت فيه مقبرة لوالدى .

أمره عجيب هذا الشاعر فى حياته وفى موته .

كان يقول فى حياته :

مرضنا فما عادنا عائدٌ ولا قيل أين الفتى الألمعى ؟

وكان يقول وكأنه يتحدث عن نفسه :

أمشى يـــرنحنى الأسى والبؤس ترنيح الشراب

كان يضحك ويتحدث أعذب الأحاديث ويروى أجمل النكت . . فى حين كان فؤاده يتمزق . وحياته يسيطر عليها البؤس والشقاء .

مولود على صفحة النيل :

بدأت رحلة الشاعر على ظهر ذهبية فى النيل عند قناطر ديروط القريبة من خزان أسيوط . فى سنة ١٨٦٩ أو ١٨٧٢ حيث لم توجد له شهادة ميلاد ، وكان أبوه (إبراهيم فهمى) مهندسًا للرى ، وأمه سيدة تركية ، وكانت له أخت واحدة اسمها (عائشة) تزوجت من ضابط فى الجيش اسمه (محمد كافى) أنجب منها أربعة أبناء ، تولت جدتهم رعايتهم بعد وفاة أمهم عائشة .

وقد توفى والد حافظ وهو فى الرابعة من عمره ، فكفله خاله المهندس محمد نيازى الذى كان يعمل بتنظيم القاهرة . ثم نقل إلى تنظيم طنطا . وتلقى الشاعر قدرًا من التعليم حتى المرحلة الثانوية ، ولكنه لم يستمر . فترك المدرسة واشتغل محاميًا عند بعض المحامين فى طنطا . حيث كانت مهنة المحاماة مباحة لكل من يستطيع .

وكان بعض المحامين الذين اشتغل معهم مشاهير فى المحاماة ، مثل محمد الشيمى بك ومحمد بك أبو شادى والد الشاعر الدكتور محمد زكى أبو شادى صاحب مجلة « أبو للو » المعروفة .

ويبدو أن صناعة المحاماة لم تعد على حافظ بما كان يتمناه من كسب فهجرها ، ومن نوادره فى هذا أنه ترك مكتب الأستاذ الشيمى ، وترك له بيتين من الشعر يقول فيهما :

جراب حظّى قد أفرغته طمعًا   بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا
فعاد لى وهو مملوءٌ فقلت له   مما؟ فقال: من الحسرات والحربا

وفى هذا تلميح صريح إلى أنه لم يكن يأخذ حقه من المحاماة . بل كان صاحب المكتب يستغله لمصلحته . كما كان خاله (محمد نيازى) قد ثقل الإنفاق عليه . فكتب إليه هو الآخر بيتين من الشعر يقول فيهما :

ثقلت عليك مئونتى   إنى أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب   متوجه فى داهيه

وفى هذا الشعر الصبيانى تدرك أن حافظًا كان فى صباه يحس بطموح غامض لا يجده فى واقع حياته ، وقد بدأ فى طنطا يرتاد المسجد الأحمدى . ويستمع إلى بعض دروس المشايخ فى الفقه والأدب والنحو وعلوم العربية . فأفاد منها ، وعرف مصادر الثقافة العربية وكان يقول الشعر فيجد آذانا مصغية من إخوانه الذين يستمعون إليه ويعجبون به ، ومنهم الأستاذ الشيخ محمد النجار الذى كان طالبًا فى المعهد الأحمدى ، وقد أصبح فيما بعد من مشاهير الأساتذة فى اللغة العربية . وقد التقى بحافظ الذى كان فى السادسة عشرة من عمره . ولقّب نفسه بلقب : الأديب الشاعر محمد حافظ إبراهيم ، وتوطّدت بينهما الصداقة ، فكانا يسهران معًا الليالى الطوال حتى مطلع الفجر . وقد وصف الشيخ محمد النجار صاحبه حافظ إبراهيم فقال :

«أحسست من نفسي ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسي ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة . وبديهة مطاوعة ، وسرعة خاطر ، وحضور نادرة» .

وهكذا عاش حافظ فى طنطا ، بلا عمل يقوم به ، ولا مدرسة يتعلم فيها ، وأصبحت حياته مشكلة بالنسبة لأسرته ، فتدخل زوج أخته الضابط محمد كافى فى الأمر ، وسعى لإلحاقه بالمدرسة الحربية حيث تخرَّج فيها برتبة (ملازم ثان) فى ١٨٩١/٢/١٣ . وكانت هذه المدرسة تقبل الحاصلين على الشهادة الابتدائية ، وتنقل حافظ بعد ذلك فى وظائف ضابط بالشرطة والجيش ، وخدم فى السودان حوالى عامين فى سواكن وطوكر وحلفا ، وأحيل إلى الاستيداع مرتين ، ثم طلب إحالته إلى المعاش سنة ١٩٠٣ ، وسلم سيفه ، وانتهت خدمته العسكرية فى هدوء وبؤس شديدين .

لم يكن حافظ محاربًا مثل البارودى ، ولم تأسره حياة الجندية ، بل إنه كان وهو ضابط فى السودان ، يقوم بدور المحامى عن زملائه الضباط فى قضاياهم ، مستغلاً فى ذلك خبرته القديمة التى استفادها من مكاتب المحامين فى طنطا ، ولذلك لا نجد فى شعره قصائد الشعر الحماسى التى كان ينشدها رب السيف والقلم محمود سامى البارودى ، واكتفى حافظ بلقب شاعر النيل الذى ظن أحمد أمين أنه لقب به بسبب ولادته فى ذهبية على صفحة النيل ، وقال قريبه (محمد إسماعيل كافى) إنه حاز هذا اللقب

بعد أن منح نيشان النيل . والأصح من ذلك ما رويته لك من قبل على لسان داود بركات رئيس تحرير الأهرام القديم . الذى كان ينشر فى صدر الجريدة قصائد أمير الشعراء شوقى وقصائد شاعر النيل حافظ إبراهيم ، وكانت جريدة الأهرام هى التى أطلقت عليهما اللقبين الشهيرين . .

البؤس والبؤساء

كما مات فردريش شيللر مصدورًا مهمومًا ، مات حافظ إبراهيم مبئوسًا محرومًا ، ولم يكن الفقر هو السبب ، فقد كان المال يجرى بين يدى شيللر ، وهو الذى ألف قصيدة السعادة التى جعلها بيتهوفن البائس الآخر سيمفونيته الخامسة المشهورة ، وقد وصل راتب شاعر النيل إلى ثمانين جنيهًا فى الشهر عندما كان يعمل فى دار الكتب . وعندما كان الجنيه يساوى مائة جنيه من جنيهات اليوم .

المال لا يجلب السعادة ، ولا يؤدى إلى البؤس . . وهناك أغنياء بؤساء ، وفقراء سعداء ، وقد كان أبأس الشعراء بعد حافظ إبراهيم الشاعر عبد الحميد الديب الذى كان مضرب الأمثال ، وقد عينه الأستاذ عبد الحميد عبد الحق رحمه الله عندما كان وزيرًا للشئون الاجتماعية موظفًا بهذه الوزارة فهرب من الوظيفة وعاد إلى حياة البطالة ، وحاول الأستاذ إبراهيم الدسوقى أباظة رحمه الله إنقاذ الشاعر من النوم فى المساجد وعلى دكك المقاهى . وكلف البائس الآخر محمد مصطفى حمام باستئجار غرفة وفرشها لعبد الحميد الديب وتم له ما أراد ، ولكن عبد الحميد الديب لم ينم فى هذه الغرفة ليلة واحدة ، وبعد أن تسلم المفتاح وخرج ، حاول العودة إلى هذه الغرفة ولكنه نسى العنوان

وعاد للنوم على دكة خشبية فى مقهى الفيشاوى بالحسين . . . ولله فى خلقه شئون .

البؤس مثل القدر مكتوب على الجبين :

ومن نوادر عبد الحميد الديب أن الأستاذ العقاد كلفه يومًا بتسليم نسخ من كتاب جديد له كتب عليه إهداءات لأصدقائه ، فأخذها عبد الحميد وباعها لبائع كتب على سور حديقة الأزبكية . ثم عاد البائع فباعها للأستاذ العقاد الذى قال يومها :

– لو طلب عبد الحميد الديب المبلغ الذى دفعته لبائع الكتب لمنحته أضعافه . . ولكن أن يبيع كتابى على سور الأزبكية فلا .

ولكن بؤس حافظ إبراهيم لم يكن من هذا الصنف ، بل كان بؤس الذين يملكون ويمنحون . أو لا يملكون فيزيدون فى المنح والعطاء ، وهو بؤس الكرماء ، لاثراء الأمراء .

ذات يوم جرى ذكر الشاعر محمود أبو الوفا وبؤسه ، وهو من معاصرى حافظ ، وكان من الذين كتب البؤس على جبينهم لا بسبب الفقر ، فقد مرت عليه أيام كان يجلس فى صالون (هدى شعراوى) ويسافر إلى أوربا ، وكان فى بعض أحواله يصل إلى جيبه ما يزيد على مائة جنيه فى الشهر ، ولكنك لا تجد فى جيبه جنيهًا واحدًا .

وحافظ إبراهيم من كبار البؤساء ، ومما يروى عنه أنه كان يركب الترام فى الدرجة الثانية ، فداس على قدم أحد الركاب وسط الزحام .

فقال له الراكب ! ألا تعلم من أنا حتى تدوس على قدمى ؟

فقال حافظ بداهة فى هدوء :

– أعلم .. راكب فى الترام بالدرجة الثانية فى شهر أغسطس ولهيب الحر فى القاهرة .. من تكون ؟ !

وجم الرجل .. وكان حافظ نفسه يسخر من نفسه أو من بؤسه المكتوب الذى لازمه طوال حياته ، وكان يقاومه بالفكاهة والنكت اللاذعة . وقد انضم إليه اثنان من كبار أصحاب النكتة فى الجيل الماضى وهما عبدالعزيز البشرى ، ومحمد البابلى ، ووصل بهم الحال فى فترة من فترات حياتهم إلى الإقامة معًا فى حلوان حيث كان بيت البابلى ، وحتى تكون بيوتهم متقاربة فلا يفترقون .

أما البشرى فكانت النكتة عنده هواية وسخرية على طريقة الكاريكاتير ، وقد تولى مناصب عديدة كان آخرها فى المجمع اللغوى . وقد كان والده الشيخ سليم البشرى شيخا للأزهر وله جاه ومنصب . وأما البابلى فقد كان من الأثرياء . وكان والده جواهرجى الأسرة الخديوية ، وقد تخرج فى مدرسة البوليس ، واشتغل ضابطا فترة قصيرة من حياته . ثم انصرف عن العمل واستكان للمتعة وبدد ثروته ، واشتهر بأنه واحد من ظرفاء مصر . وكانت النكتة عنده سليقة وفطرة وذكاء .

وأما حافظ فقد كانت النكتة عنده خروجًا من حالة نفسية ملازمة يمضفض بها عما فى جوانحه . وقد اتخذ من الشاعر البائس أسمر الوجه مام العبد تابعا ملازمًا له فى غدواته وروحاته . وجعله موضع التنكيت فى كثير من الأحيان . وقد رآه مرة فى الصيف بلا ربطة عنق فى قميصه . وقد بان سواد جلده خلف القميص فصاح حافظ قائلا :

– لماذا تضع ربطة عنق سوداء يا إمام .. من الذى مات لك ؟

حتى النكتة جعلها ترتبط بالموت ..ومما يروى من نكته أن موظفًا دأب على طلب الإجازات من رئيسه لموت أبيه . وعاد الموظف يكرر الطلب لموت أمه ، فقال له رئيسه :

– أفهم أن يكون لك أربعون أبًا ، ولكننى لا أفهم أن يكون لك أكثر من أم واحدة .

وهذه أيضًا من النكت اللاذعة القارصة . ولكن النكتة وحدها لم تكن هى التى يخرج بها حافظ من حالته النفسية ،فقد كان محدثًا بارعًا يأخذ بألباب السامعين . وكان كثيرون من عظماء مصر يحبون مجالسته . ومنهم سعد زغلول الذى كان يأخذه معه عندما يذهب للراحة فى قريته (مسجد وصيف) . وفى ذلك يقول زكى مبارك :

– وقد تعلق به سعد باشا فى أخريات أيامه تعلقًا شديدًا . وكان سعد باشا من الأدباء الفحول ، فكان يروقه أن يستمع إلى أحاديث حافظ الحلوة الشهية .

ذهب حافظ إلى سعد زغلول وهو رئيس للوزراء . فكتب إليه بيتين سلمهما لسكرتير الباشا فى مجلس الوزراء . يقول فيهما !

قل للرئيس جزاه الله صالحة ... بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شاء حدثه أو شاء أتحفه ... بكل نادرة تروى وتبتكر

وذكر طه حسين أنه كان يلقى حافظ إبراهيم فى مجلس محمد محمود باشا رئيس الوزراء . وكان محمد محمود أيضًا من عشاق الشعر ، وقد ضم مجلسه بعد ذلك كامل الشناوى ومحمود حسن إسماعيل وغيرهما من الشعراء والأدباء .

ولعلك ترى أن الظرف وحسن الحديث والنكتة كانت عند حافظ دواء لظاهرة البؤس المزمن ، ولذلك لم يظهر أثرها فى شعره من أوله إلى آخره ، فخلا من الفكاهة والدعابة والملح وخفة الدم التى اشتهر بها حافظ ، بل إنه عندما أراد عتاب صديقه محمد البابلى ظريف الظرفاء فى القاهرة ، كتب إليه هذا الشعر السخيف :

أخى والله قد ملئ الوطابْ ... وداخلتنى بصحبتك ارتياب
رجوتك مرة وعتبت أخرى ... فلا أجدى الرجاء ولا العتاب
نبذت مودتى فاهنأ ببعدى ... فآخر عهدنا هذا الكتاب

لقد كانت النكتة والفكاهة والحديث الحلو قشرة خارجية تغلف

نفس حافظ البائسة ، ولكنها كانت تعيش فى أعماق صاحبه الشيخ عبدالعزيز البشرى صاحب الأسلوب الكاريكاتيرى البديع الممتع . وخاصة فى فصوله الشهيرة : فى المرآة ، كما كانت على لسان صديقه الآخر محمد البابلى فى كل لحظة وفى كل الظروف والأحوال .

البؤساء وكتب أخرى

وعلى ذكر البؤس والبؤساء والظرف والظرفاء ، أرى أن ترجمة رواية (البؤساء) لفيكتور هوجو جلبت لمعربها حافظ إبراهيم المتاعب حتى اليوم ، وأكدت للناس أنه من البؤساء .

كتب أنيس منصور فى الأهرام (١٩٨٢/٨/٨) : ويوم أعاد حافظ إبراهيم صياغة رواية البؤساء حملها إلى الأستاذ العقاد . وكان شديد الفزع ، فهو لايعرف أية لغة أجنبية ولا يعرف بالضبط ما الذى سيقوله النقاد . ولكن الأستاذ العقاد طيب خاطره وقال له : لقد اجتمع بؤساء كثيرون فى هذه الرواية : أنت والمؤلف واللغة العربية وكل ناقد يريد أن يقول الحق .. لقد جنيت على كل هؤلاء ياسيدى .

فضحك حافظ إبراهيم قائلا : هل ترى أن أنتحر فى بيتك .

فأجابه العقاد : بل أفضل أن تعيش نادمًا على هذه الجريمة الأدبية .

والحقيقة أن كل ترجمات حافظ ينطبق عليها هذا الوصف ، وما قولك فى أنه نشر بيتًا واحدًا من الشعر فى ١٥ يناير ١٩١٦ قال إنه ترجمة عن فولتير :

لا أبالى أذى العدو فحطنى   يارب من ولاء الصديق

وهذا المعنى لايمكن أن يقوله الزنديق فولتير وأولى به أن ينسب إلى الشيخ عبدالرحيم الدمرداش شيخ الطريقة الدمرداشية .

وقد ترجم حافظ بالاشتراك مع خليل مطران عن اللغة الفرنسية أيضًا كتابا عنوانه (موجز الاقتصاد) بأمر أحمد حشمت باشا وزير المعارف وكلا المترجمين لايعرف شيئا عن الاقتصاد ، ولكن الباشا أراد أن يمنحهما مبلغًا من المال بطريقة مهذبة لا تجرح الشعور فكلف الشاعرين بترجمة هذا الكتاب .

ولكن رواية البؤساء التى شغلت النقاد كان لها شأن آخر ، فقد انتشرت فى ذلك العصر موضة تعريب الروايات الفرنسية بأسلوب عربى رومانتيكى مؤثر . وكان زعيم هذه الموضة مصطفى لطفى المنفلوطى ، وله روايات تستدر دموع العذارى . ولم يكن المنفلوطى يعرف اللغة الفرنسية .

وكانت الروايات تترجم له ثم يعيد كتابتها بأسلوبه ، ومن أشهرها رواية (فى سبيل التاج) ، التى كنا ندمن قراءتها فى صبانا .

وعندما عرب حافظ رواية البؤساء أهداها للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى أمر بطبعها وتوزيعها حتى يحصل حافظ على بعض المال ، وكان بيع النسخ مثل الاكتتاب لمساعدة الشاعر .

وما قولك فى ضابط شاعر عائد من السودان ومحال إلى الاستيداع ومرتب هذا الاستيداع أربعة جنيهات فى الشهر .

لقد ذهب حافظ بعد عودته من السودان لزيارة محمود سامى البارودى فى قصره بغيط العدة على مقربة من ميدان باب الخلق وكان رب السيف والقلم قد عاد من منفاه . ورتب له معاش شهرى قدره أربعون جنيها . وسمع الباشا قصة حافظ أو مأساته . فقام من مجلسه وأحضر مظروفاً فيه معاشه الشهرى . وكان قد وصله فى ذلك اليوم . وأعطاه لحافظ معتذرًا وقال له .

– لعن الله زمانًا يجعل مثلى يعطى لمثلك هذا المبلغ الضئيل .

لقد شهد هذه الحكاية الشاعر خليل مطران وظل يرويها . حتى ذكرها الدكتور صبرى السربونى والدكاترة زكى مبارك كنموذج للحياة الأدبية فى تلك الأيام .

وهكذا كان كتاب (البؤساء) نوعًا من المساعدة المالية لشاعر عاطل لايكسب شيئًا .

ولكن طه حسين كان شديد الاهتمام بكتاب البؤساء . ولعله كان يريد أن يؤكد فى الأذهان ثقافته الفرنسية إلى جانب علو كعبه فى العربية ، مع أن الكتاب لا يستحق الاهتمام . ولكن اقتران اسم طه حسين بحافظ إبراهيم وفكتور هوجو هى محل الاهتمام ، بل إن نثر حافظ كله لايستحق الاهتمام حتى فى كتابه (ليالى سطيح) ، وهو من الكتب السطحية الفجة ، وليس كتاب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى الذى حاول حافظ تقليده فعجز عن ذلك .

قال طه حسين : « إن حافظًا لم يترجم مقدمة هوجو لرواية البؤساء ، وإن أسلوب الترجمة يرجع إلى العصر الجاهلى » كما قال : « إن رواية البؤساء ليست خير أعمال فكتور هوجو » . وهذه هى خلاصة رأى طه حسين فى الرواية ، وقد مط هذا النقد الممل مطًا ، وزاد وأعاد على غير جدوى ، لأن العمل الأدبى نفسه لايستحق أن يذكر لشاعر عظيم مثل حافظ ، وهو من سقطات الأقلام .

ولكن هذه الرواية كانت سببًا فى شهرة حافظ بين البؤساء ، ثم زادت شهرته بالبؤس بسبب قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

سعيت إلى أن كدت أنتقل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع
رأى فى ظلام القبر أنسًا ومغنما

وهذه القصيدة من روائع أشعار الشكوى والأنين .

فيا قلب لاتجزع إذا عضّك الأسى
فإنك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعى
فلا سيل دمع تسكبين ولا دما

ويـايدُ ما كلفتك البسط حرة
لـذى مـنَّـة أولى الجمـيـل وأنـعما
ويــا قــدمى مــاسرت بى لمذلــة
ولم تـرتق إلا إلى الـعـز سـلمًا
ويانفس كم جشمتك الصبر والرضا
وجشــمـتنى أن ألـبس المجد مُـعـلما
ويا صدر كم حلّت بذاتك ضيقة
وكم جال فى أنحائك الهم وارتمى

حياة بوهيمية هائمة

بعد عودة حافظ من السودان ببضع سنوات تزوج بإحدى قريبات زوجة خاله . ولكن هذا الزواج لم يدم غير بضعة أشهر . ولما توفى خاله عاشت أمينة هانم زوجته فى بيت حافظ ترعاه حتى توفيت قبل وفاة الشاعر بثلاث سنوات . وقام على خدمته خادم اسمه حسن كما يقول (محمد إسماعيل كافى) أحد أقارب الشاعر .

ومن الواضح أن حافظًا لم تكن له حياة عائلية بل كان بوهيميًا هائما على وجهه . وكانت الدنيا ضيقةً عليه . فكان يتلمس الخلاص من همومه فى لقاء إخوانه . حتى أنه بعد تعيينه فى دار الكتب لم يكن يدخلها إلا زائرًا . ولم يستطع أحمد لطفى السيد عندما كان مديرًا لدار الكتب أن يحتجز حافظًا فى تلك الدار إلا فى اللحظات التى كان يحتاج فيها إلى معاونته فى مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق لأرسطو .

يقول زكى مبارك . وقد كان حافظ رئيسه فى القسم الأدبى بدار الكتب ذات يوم :

« كان رحمه الله يخرج من بيته فيظل يتنقل من ناد إلى ناد . ومن مشرب إلى مشرب . ومن منزل إلى منزل ، باحثًا عن أصفيائه الذين ألفوا ماينفحهم به من طيبات الأحاديث » .

وأشهر المشارب التى كان يغشاها حافظ بار اللواء ونيوبار . حيث يجلس الأدباء المتقاعدون الذين أخلدوا إلى السكينة بعد أن كانوا أنشط من الجن وأخطر من النار .

ولكن حافظًا فى بدايات حياته تعلق بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . ولازمه ملازمة كاملة ، وكان يسافر معه إلى المدن المصرية كلما سافر الأستاذ الإمام . حتى أصبح يسمى فتى الإمام . وصار هذا من ألقابه وكان الأستاذ الإمام يوقظه فى آخر الليل للوضوء والاستعداد لصلاة الفجر . ولكن حافظًا كان يضجر من ذلك . يقول حافظ عن رحلته مع محمد عبده إلى ميت غمر : فى حادث الحريق المشهور :

– كان الأستاذ الإمام ينغص عليّ نومي بصلاته فى آخر الليل . ثم يطرق باب حجرتى عند الصباح لصلاة الفجر . ويناديني بقول الشاعر : ياراقد الليل إلى كم تنام .

فقلت له : يامولاى إننى لا استطيع أن أحمل الإسلام كله فى سفرة واحدة . حملت هذه المرة عقائده ، وسأحمل فى الثانية ماشئت من صلاة وصيام .

وهكذا كان حافظ حتى فى صلته بالشيخ محمد عبده . متمردًا بوهيميًا ، وبعد وفاة الأستاذ الإمام عام ١٩٠٥أصيب الشاعر بالإحباط ، فقد كانت وفاة محمد عبده كارثة هزت كيان حافظ هزًا عنيفًا .

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

وحافظ فى هذا الشعر صادق كل الصدق ، فقد كان محمد عبده كل شىء فى حياة الشاعر ، وكان الأستاذ الإمام يؤثره على أخص تلاميذه ويصحبه معه فى سفره إلى أقاليم مصر ، وقد ذهبا معًا إلى ميت غمر كما ذكرت وقال حافظ قصيدته الشهيرة فى حريق هذه المدينة :

سائلوا الليل عنهم والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم
وكيف اصطلى مع القوم نارا

وهذه القصيدة من عيون الشعر العربى الحديث .

وكان الشيخ محمد عبده يغتفر لحافظ بوهيميته المنطلقة ، إكرامًا لشعره ، فقد كان الأستاذ الإمام من كبار الأدباء الراسخين .

ومنذ سنة ١٩٠٥ وهى سنة وفاة الأستاذ الإمام حتى سنة ١٩١١ عندما عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف رئيسًا للقسم الأدبى بدار الكتب كان حافظ تائهًا فى الدنيا برغم ما بلغه من شهرة ذائعة كشاعر يقف مع شوقى أمير الشعراء فى مبارزة دائمة ، لم يستطع شاعر آخر فى

مصر أو فى العالم العربى مشرقه ومغربه أن يصل إلى موقع هذه المبارزة الشعرية الرائعة بين حافظ وشوقى .

كان فى مصر شعراء كثيرون .. الشيخ محمد عبدالمطلب ، وخليل مطران ، وولى الدين يكن ، وعبدالحليم المصرى وأحمد نسيم .. وآخرون كثيرون .

وكان فى الشام بشارة الخورى (الأخطل الصغير) وشعراء آخرون وكان فى العراق معروف الرصافى ، ومعه كوكبة من الشعراء .

ولكن خشبة المسرح خلت إلا من حافظ وشوقى ..

البوهيمية والأرستقراطية

ويخطئ من يظن أن ميلاد حافظ فى حى شعبى قاهرى هو حى المغربلين . وكان سبب شعبيته ، فقد ولد شوقى أيضًا فى حى شعبى قاهرى هو حى الحنفى حيث يوجد جامع الحنفى حتى اليوم ، وعلى مقربة من حارة السقايين وغيرها من حوارى حى عابدين التى كان يعبرها شوقى فى طريقه إلى قصر عابدين .

وهذا الأمر لاعلاقة له بالشعر أو الفن ، ولادخل له فى تفسير الظواهر الأدبية ، وقد رأيت الشاعر الزجال حسين شفيق المصرى وهو من أرومة تركية . يسكن عند حارة السقايين ، ويختلط بالباعة والسوقة ،

لم يكتب أدبًا شعبيًّا وقد كان من أعز أصدقاء شوقى أمير الشعراء حتى قيل إنه كان يقدم إلى أمير الشعراء أوزان بحور الشعر المهجورة .

إن الفن من صنع الإنسان ولذلك كانت بوهيمية حافظ من الخصائص الذاتية ولا علاقة لها بالنشأة الشعبية ، بل إن الشاعر ولى الدين يكن بك . وهو من السلالة الأرستقراطية التى تصل إلى النسب مع أسرة محمد على المالكة ، كان أكثر بوهيمية من حافظ .. وكان من أعمامه (عدلى يكن باشا) رئيس الوزراء .. وكان (يكن) ابن أخت محمد على باشا الكبير .

وكان ولى الدين يكن صعلوكًا أرستقراطيًّا منفصلاً تمامًا عن الشعب المصرى فى حين كان شوقى شعبيًّا أرستقراطيًّا شديد الاتصال بالشعب فى قصائده الوطنية والإسلامية .

ولكن النقاد ينظرون إلى نشأة شوقى ونشأة حافظ ، وتصرفهم هذه النظرة أو تبعدهم عن شعر الشاعرين ، وعن الموضوعية فى تقييم الشعر ذاته مرتبطًا بكيان الشاعر وثقافته وبيئته . ولذلك صدرت الأحكام المسبقة على حافظ وشوقى قبل النظر فى شعرهما .

كان شوقى شاعر الخديوى توفيق . والخديوى عباس حلمى الذى عزل فى الحرب العالمية الأولى . ونفى الشاعر إلى أسبانيا بسببه . .

وحاول حافظ أن يصبح شاعر الملك فؤاد ، وأراد أن يؤلف جماعة من الشعراء يسميهم شعراء القصر فلم ينجح فى ذلك ، وفى سنة ١٩٢٥

دعى حافظ إلى مقابلة حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى . وكلفه بإعداد قصيدة يلقيها فى حضرة الملك فؤاد يوم الاحتفال بافتتاح الجامعة المصرية ، ثم كانت القصيدة التى ألقيت فى الاحتفال قصيدة شوقى لاقصيدة حافظ .. وضاعت قصيدة حافظ وتهشم خاطره الجميل كما يقول زكى مبارك ، وظل شوقى شاعرًا للقصر برغم كراهية الملك فؤاد له بسبب انتمائه إلى الخديوى عباس حلمى .

هذه الأحاديث التى تروى عن الشعراء فيها خلاف كثير ، ولذلك فإننى أحب النظر إلى شعر حافظ بعيدًا عن المؤثرات الخارجية وآراء بعض النقاد الذين مازال بعضهم يصر على أن شوقيًا شاعر القصر وأن حافظًا شاعر الشعب بعد خمسين عامًا من رحيلهما ، وبعد أن انتهى القصر وانتهت الملكية .. وبقى الشعر والشاعر.

ونحن فى حاجة إلى نظرة عصرية لشعر حافظ بعيدًا عن هذه المؤثرات . وأعتقد أن الخمسين عامًا التى مضت منذ رحيل حافظ تكفى لإعادة النظر إلى شعره فى ضوء الحقائق التاريخية والفنية الواضحة أو الثابتة بقدر يسمح بإعادة النظر وتصحيح أحكام الأدباء المعاصرين لحافظ .

وعلى سبيل المثال قال زكى مبارك إن حافظًا تخاذل فى ثورة ١٩١٩ فلم ينطق بحرف . وذكر – أى زكى مبارك – أنه قال لحافظ :

– تريد قصائد وطنية .

قال – والاعتقال ؟؟

قلت – وما خطر الاعتقال ؟

فأجاب فى هدوء : لن أجد فى المعتقل هذا السيجار (وكان فى يده سيجار) .

فقلت : لن تكون شاعر مصر الوطنى وأنت أسير هذا السيجار البغيض .

وأنا لا أصدق هذه الرواية ، مع إننى صدقت روايات أخرى لزكى مبارك ، اشترك فى الحديث عنها كتاب آخرون أو رويت عن طرق متعددة بأقلام كتاب لهم رأى مثل : العقاد ، وطه حسين .

والشيء الذى تحققت منه هو أن قصائد ثورة ١٩١٩ كانت مثل المنشورات السرية ، وكان يتناقلها الناس وقد لايعرف قائلها ، بل إنه كان من تكتيك الثورة إغفال أسماء الشعراء حتى لا يقبض عليهم . ولذلك سكت حافظ عندما سمع أن قصيدته المشهورة عن مظاهرة السيدات فى ثورة ١٩١٩ تنسب لشعراء آخرين ، وقد وجدت فى كراسات والدى عندما كان طالبًا فى مدرسة الحقوق بعض قصائد لثورة ١٩١٩ مكتوبة وسط المحاضرات .. ومنها قصيدة للشاعر أحمد نسيم يقول فيها للإنجليز :

يا ناشرين لواء العدل فى الأمم

وقد ضاعت هذه القصيدة وغيرها منى واأسفاه عندما فقدت هذه

الكراسات . وذكر لى شيخي أمين الخولى أنه ألف نشيد الثورة عندما كان طالبًا فى مدرسة القضاء الشرعى ، وهو يقول : :

اضربونا بالرصاص فالحياة فى القصاص
اضربونا بالمدافع ما لأمر الله رافع

ألم يكن حافظ شاعر سعد زغلول زعيم الأمة كما وصفه زكى مبارك نفسه . ومن أين للشاعر البائس الفقير ثمن السيجار؟ لقد اشتهر حافظ طول حياته بأنه يدخن الشيشة لا السيجار .

وفى هذا القبيل أيضًا ما زعمه زاعمون من أن حافظًا انصرف عن الشعر الوطنى بعد أن أصبح موظفًا فى دار الكتب منذ سنة ١٩١٣ وهذا غير صحيح أيضًا فقد ظهرت فى ديوانه قصيدة من أروع الشعر الوطنى قالها سنة ١٩٣٢ مهاجمًا استبداد إسماعيل صدقى باشا . وقال فى مطلعها :

قد مر عام ياسعاد وعام وابن الكناة فى حماه يضام

ولم يكن جواسيس صدقى باشا غافلين عن ذلك ، ولكن يبدو أن القبض على حافظ إبراهيم بك شاعر النيل ، كان أصعب من القبض على عباس محمود العقاد الكاتب السياسى ، بل إن إسماعيل صدقى بذكائه كان يحاول استمالة بعض الشعراء إلى جانبه ، وهو الذى أوفد الشاعر محمود أبو الوفا – وكان موظفًا فى دار الكتب – إلى فرنسا لتركيب ساق

صناعية له ، ولكن الشاعر لم يقل فيه شعرًا .

وهناك ناحية هامة فى حياة حافظ ذكرها عباس محمود العقاد . وهى أن حافظًا لم يكن يكتب قصائده بل كان يقولها ويحفظها ، ولم يكن فى بيته أوراق ولا أقلام . وقد أجمع معاصروه على أنه كان حافظًا وكان اسمه حافظًا . فقد كان يتمتع بذاكرة خارقة . حتى أنه كان يحفظ آلاف الأبيات من الشعر القديم . ومن مفردات اللغة . وقيل إنه كان يحفظ نص كتابه (ليالى سطيح) ويرويه من الذاكرة وهو من النثر وليس من الشعر .

الشاعر

وصفه العقاد بأنه صناجة الأمة ، وقال عنه :

– كان حسن الإنشاء ، بل رائع الإنشاء . يلقى شعره بصوت جهورى عميق ، ولهجة هى أقرب إلى الترتيل منها إلى مجرد الإلقاء ، ويستعيده السامعون أبياته ، ثم يستعيدونه القصيدة بعد الفراغ منها ، طربًا للصوت والإنشاد . قبل أن يمعن فى نفوسهم الإعجاب بالمعانى والكلمات .

وكان يختار كلماته بجرسها وإيقاعها وموقعها كأنه يضع ألحانا ولا يضع كلمات .

قال له العقاد ذات يوم مازحًا يداعبه :

– ما أجدرك أن تملأ بشعرك أسطوانات ولاتطبعه فى صفحات .

فقال للعقاد :

– وتكون أنت عقاديًا على تخت الغناء ، وهو يشير بذلك إلى عازف القانون الشهير محمد العقاد .

ووصفه العقاد بأنه كان أنيس المحضر ، ظريف المنادمة تسرع البشاشة إلى وجه من يراه . وهذه من صفات الصناجة فى عصر النابغة الذبيانى والأعشى ، ثم قال العقاد :

– كان حافظ صناجة مصر الذى ينشد لها فتسمع وتطرب وتردد وتستعيد ، وكان شعره فى كل مسمع ، واسمه على كل لسان .

ثم مضى فلم يذكره أحد لمناسبة أو غير مناسبة فلماذا انقطع الحديث عنه حيث كان يجب أن يتصل بغير انقطاع ؟

علل عباس محمود العقاد هذا النسيان بقوله : إن بيئات الفن والنشر (عام ١٩٥٠)فى هذا الزمن يثبت فيها أنصاف الرجال هنا وهناك ، وهو تعليل عاطفى كما ترى ، وقد كان العقاد نفسه صاحب القلم الذى لا ترد له كلمة ، وكانت صلته بحافظ تدعوه إلى الكتابة عنه أكثر مما كتب ، ولكن شدة الارتباط بين أهل الأدب والفن تجعلهم أحيانًا لا يكتبون عن أحبابهم .

ولكن وصف العقاد لحافظ بأنه صناجة مصر الذى كان يغنى لها من أبدع الأوصاف التى تهز المشاعر . وأنت كلما سمعت أم كلثوم تغنى لشاعر النيل قصيدته الخالدة (مصر تتحدث عن نفسها) لا تملك إلا الترنح طربًا .

وقف الخلق ينظرون جميعًا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشر ق ودراته فرائد عقدي

والعجيب فى الأمر أن أم كلثوم التى كانت تلازم حافظًا وصاحبه عبد العزيز البشرى ، وتتبادل معها النكت اللاذعة ، لم تغنى لحافظ فى

حياته بيتًا واحدًا من شعره .

وقد حلل العقاد شاعرية حافظ تحليلا نقديًا بارعًا لخصه فى أربع نقاط .

يقول العقاد عن شاعر النيل :

● هو أولا وسط بين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى ومابعدها ، وبين الشاعر كما يفهمونه فى القرن العشرين .

فالشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى ومابعدها نديم يلقى جميع سامعيه ويعاشرهم فى المجلس ويطيب خواطرهم بالملح والأحاديث . فكانت صفات القديم لازمة له أشد اللزوم .

والشاعر كما يفهمونه فى القرن العشرين يخاطب قراءه من وراء المطبعة أو ستار التمثيل .. وحافظ كان وسطاً بين شاعر المجلس وشاعر المطبعة .

● وهو ثانيًا وسط بين شاعر الحرية القومية وشاعر الحرية الشخصية .

● وهو ثالثًا وسط بين المطلعين على الآداب العربية وحدها والمتوسعين فى قراءة الآداب الأوربية ، فلا تجد بين عارفى اللغات الأجنبية أحدًا أشبه منه بمن يجهلونها ، ولا تجد بين جاهليها أحدًا أشبه منه بمن يعرفونها .

● وهو رابعًا وسط بين مبالغة الأقدمين وقصد المحدثين ولاسيما فى

المديح ، فحافظ يمثل أمته فى مديحه كما يمثلها فى قصائده الاجتماعية .

هذه الأركان الأربعة التى وضع أساسها العقاد كناقد ترسم حقًا الملامح الفنية لشاعر النيل ، ويمكن أن تكون أساسًا لدراسة شعره . ولكن طه حسين لم يصور حافظًا الشاعر . بل قرنه كثيرًا بشوقى لسبب أو لغير سبب . حتى إنه قال فى ثنايا كلامه : إنه لم يكن من المتصور إقامة اجتماع فى مصر ليس فيه قصيدة لحافظ أو شوقى ، كما إنه من غير المتصور أن يقام فرح بغير مغن . أو مأتم بغير قارئ قرآن ! !

أما الشاعر حافظ إبراهيم ، فقد مدح طه حسين بعض قصائده ، وانهال بالنقد اللاذع على قصائد أخرى أخرجها من نطاق الشعر ..

ولكن طه حسين وقف عند الشاعر وقفة جديرة بالاهتمام عندما تحدث عن الرثاء فى شعر حافظ ، ومن خلال هذه النظرة العميقة استكشف نفس شاعر النيل ، لأن الرثاء عند حافظ لم يكن مقصودًا لذاته ، وإنما كان تصويرًا فنيًا للمجتمع المصرى وشخصياته المختلفة من رجال سياسة وأدب وغيرهم ، وكان فى ذلك مثل الجبرتى الذى كانت كتابته لوفيات أهل زمانه أصدق تاريخ للمجتمع المصرى بكل شخصياته من أمراء وحكام وعلماء وشعراء .

وصف طه حسين الشاعر حافظ إبراهيم فقال :

– لم يكن فردًا يعيش لنفسه بنفسه ، وإنما كانت مصر كلها ، بل الشرق كله ، بل الإنسانية كلها فى كثير من الأحيان تعيش فى هذا الرجل

تحس بجسه ، وتألم بقلبه ، وتفكر بعقله ، وتنطق بلسانه ، لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرًا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ .

فالذين يقرءون شعره الآن ، والذين كانوا يقرءون شعره فى حياته والذين كانوا يستمعون إليه إذا أنشد الشعر فى المجالس الخاصة ، والمجامع العامة ، يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة الشعب وما يجد من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس به من يأس أو رجاء .

وخلاصة رأى طه حسين فى حافظ أنه كان يحب الشعب ويحس بحسه ويشعر بشعوره ، وهذه حقيقة واضحة فى معظم أشعاره .

أما أحمد أمين وهو جامع ديوانه ، وكاتب ترجمة حياته ، فقد رأى أن حافظًا جدد فى موضوعات الشعر وأغراضه فنظم فى موضوعات عصره وأمانى قومه ، كما لاحظ أحمد أمين أن شاعر النيل كان يملك قوة العاطفة ، وحسن الصياغة ، وجمال الموسيقى ولكن كان يعوزه قوة الخيال .

ولعلك ترى معى أن هؤلاء الثلاثة الكبار : العقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، قد رسموا صورة كاملة للشاعر تتعدد مجاليها ، ولكنها تشكِّل لوحة واحدة ، هى فى النهاية وجه شاعر وطنى عظيم .

ديوان حافظ

صدرت الطبعة الأولى من ديوان حافظ فى فبراير ١٩٣٧ وأشرف عليها ، وكتب مقدمتها التى هى ترجمة حياة الشاعر أستاذنا أحمد أمين ، وكان أحمد أمين هو الذى نشر ديوان (إسماعيل صبرى) أيضًا ، وكتب مقدمته ، وهذا من أعماله الجليلة .

وقد سرقت هذه الطبعة الأولى وصورت ونشرت فى بيروت بغير تاريخ ، ثم صدرت الطبعة الثانية فى سنة ١٩٨٠ عن طريق الهيئة المصرية العامة للكتاب . وأضاف إليها الأستاذ محمد إسماعيل كافى أحد أقارب حافظ معلومات جديدة وهامة عن حياة الشاعر ، كما أضاف إليها قصائد جديدة لم تنشر فى الطبعة الأولى .

وعند صدور ديوان حافظ تناوله زكى مبارك بالنقد ، ولكن معظم نقده كان هامشيًّا لايصل إلى الصميم إلا فى نقاط محددة ، ومن أهمها ما قاله الأستاذ أحمد أمين من أن الحزن الذى غلب على طبيعة حافظ هو الذي قضى بأن تكون أكثر قصائده فى المراثى .

وعلق زكى مبارك على ذلك قائلا :

« إن الرثاء كان يفرض على حافظ فى كثير من الأحايين ومن هنا تقل اللوعة فى أكثر مراثيه فيستمر الموقف باجترار حوادث التاريخ » .

ولم يكن الأمر ما قاله أحمد أمين ، ولا زكى مبارك ، ولكن القول ما قاله طه حسين فى مراثى حافظ التى كان يتعمد فيها تصوير المجتمع المصرى عن طريق الشخصيات التى يقول فى رثائها ، وأصدق مثال على ذلك رثاء محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول .

إنه لايرثى محمد عبده ولكنه يرثى الإسلام .. ولايرثى مصطفى كامل أو سعد زغلول ولكنه يرثى الوطنية المصرية . ونحن لاننظر بالطبع إلى مراثى المجاملة مثل رثاء بعض أثرياء الأسرة الأباظية – وقد نبه طه حسين إلى ذلك – ولكننا ننظر إلى مراثى الأعلام .

يقول حافظ فى رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ،

سلام على الإسلام بعد محمد   سلام على أيامه النضرات

ويقول فى رثاء مصطفى كامل :

ايا قبر هذا الضيف آمال أمة
فكبّر وهلل والق ضيفك جاثيا

ويقول فى رثاء سعد زغلول :

إيه ياليل هل شهدت المصابا
كيف ينصب فى النفوس انصبابًا

وهذه المراثى وغيرها ليست حزنًا نواحًا ، ولكنها عواطف مشبوبة ، وصور لحياة مجتمع فى حياة واحد من أبنائه رحل من الدنيا وكان له شأن فيها .

الموضوعات الجديدة

لمح أستاذنا أحمد أمين فى شعر حافظ هذه اللمحة الخاطفة ، وهى تجديد الموضوعات والأغراض ، ولكنه ترك الباب مفتوحًا فلم يحدد هذه الموضوعات وهى كما أراها :

● الشعر الوطنى وهو يختلف عن الشعر السياسى فى المفهوم الفنى ، فقد يكون الشعر سياسيًّا ، ولكنه غير وطنى . ويمكن إدخال الشعر الوطنى فى باب السياسة كما فعل أحمد أمين عندما جمع كل شعر حافظ الوطنى والسياسى تحت باب السياسيات .

● شعر الملاحم ، وهى ملحمة واحدة سماها حافظ العُمرية ، وهى قصيدة طويلة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد تولى شرحها الشيخ محمد الخضرى أستاذ التاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية القديمة ، وقد نسج الشيخ محمد عبدالمطلب على منوالها ، وكتب قصيدة ملحمية سماها (العلوية) عن على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم كتب عبدالحليم المصرى قصيدة ملحمية أخرى عن (محمد على الكبير) ولذلك يعتبر حافظ أول من طرق شعر الملاحم فى الأدب العربى .

● الشعر التمثيلى حيث كتب حافظ مسرحية من فصل واحد فى

سنة ١٩١٢ عندما ضرب الأسطول الإيطالى مدينة بيروت وهى محاولة شعرية هامة فى تاريخ الشعر العربى الحديث .

● الهجريات وهى قصائد كان يقولها حافظ فى الاحتفال برأس السنة الهجرية ، وظل يقولها أعوامًا طويلة .

وبرغم ذلك فإننا لم نجد خلال الخمسين عامًا التى مضت منذ رحيل حافظ محاولة واحدة فى رسالة جامعية لتفسير ظواهر التجديد الموضوعى فى شعر حافظ ، مع أن كليات الآداب فى الجامعات المصرية انتشرت فى أنحاء البلاد . وقدمت فيها رسائل عن شعراء كثيرين .

هل أصيب هذا الشاعر العظيم بلعنة مجهولة مثل لعنة الفراعنة ؟ لست أدرى !

شاعر الوطنية :

اشتهر حافظ بلقب (شاعر الوطنية ومشهر دنشواى فى البرية) بعد أن نشرت قصيدته الشهيرة (حادثة دنشواى)

أيها القائمون بالأمر فينا
هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئًا
وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

وإذا أعوذتكم ذات طوق
بين تلك الربا فصيدوا العبادا

وقد نشرت هذه القصيدة فى ٢ يوليو ١٩٠٦ بعد خمسة أيام من صدور الأحكام بإعدام الفلاحين فى دنشواى فارتجت لها مصر كلها ، وتناقلتها الصحف والمجلات .

واستمر حافظ فى هجومه على الاستعمار البريطانى فقال فى ١٧ أكتوبر ١٩٠٦ قصيدة ساخرة فى استقبال لورد كرومر سفاح دنشواى وقال له .

إن ضاق صدر النيل عما هاله
يوم الحمام فإن صدرك أرحب

وهو يشير إلى حمام دنشواى الذى كان يصطاده بعض الضباط الإنجليز .

كما قال لكرومر فى أول يناير ١٩٠٧

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت
حواشيه حتى بات ظلمًا منظَّمًا
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى
وأن أصبح المصرى حرًّا منعَّمًا

أعد عهد إسماعيل جلدًا وسخرة
فإني رأيت المنّ أنكى وآلما

وبعد سقوط كرومر ودعه حافظ فى ٢٧ إبريل ١٩٠٧ . قائلا :

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى
فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وإنه
حقيق بتشييع المحبين والعدا

وأنت ترى كيف استخدم حافظ لفظة (تشييع) فى توديع كرومر وكأنه خرج من مصر فى جنازة .

وعندما جاء السير الدون جورست إلى مصر خلفا لكرومر استقبله حافظ بمأساة دنشواى ، وقال له :

قتيل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت (كرومرًا) قد دام فينا يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آنا بعد آن بمجلود ومقتول شهيد
لننزع هذه الأكفان عنا ونبعث فى العوالم من جديد

وفى يناير ١٩١٥ عين السير هنرى مكماهون معتمدًا بريطانيا فى مصر ، فقال له حافظ

أوضح لمصر الفرق ما بين السيادة والحماية
ودع الوعود فإنها فيما مضى كانت رواية
نرجو حياة حرة مضمونة فى ظل راية

وكانت هذه القصيدة إرهاصًا بثورة ١٩١٩ ، وقامت الثورة وأصبح حافظ من أقرب المقربين لزعيمها سعد زغلول ، وقد وصف العقاد مكانة حافظ عند سعد فقال إنه كان يستبيح لنفسه من الجرأة والفكاهة معًا ما لم يجرؤ عليه أحد فى مجلس الزعيم .

وقال حافظ قصيدته الشهيرة فى مظاهرة السيدات .

خرج الغوانى يحتججن ورحت أرقب جمعهنه
وأخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنه
وإذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنَّة
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقًا حولهنَّه
والورد والريحان فى ذاك النهار سلاحهنَّه

وهذه القصيدة من أروع الشعر العربى ، وقد نشرت عندما قالها حافظ فى منشورات وطنية . وتأخر نشرها فى الصحف إلى ١٢ مارس سنة ١٩٢٩ ، كما قال أستاذنا أحمد أمين ناشر ديوان حافظ ، وقد كان أحمد أمين نفسه طالبًا فى مدرسة القضاء الشرعى أيام ثورة ١٩١٩ .

وكان أحد أعضاء الجهاز السرى للثورة ، وكان يرسل التقارير إلى أستاذى محمد كامل سليم (السكرتير الخاص لسعد زغلول) أمتعه الله بالصحة والعافية وأمد فى عمره ، لإبلاغها لزعيم الأمة . كما روى الأستاذ كامل سليم وقال حافظ الدرة الثانية – التى غنتها أم كلثوم – فى تيار ثورة ١٩١٩ ، وقد نشرت فى ١٥ ديسمبر ١٩٢١ .

وقف الخلق ينظرون جميعًا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام فى سالف الدهر كفونى الكلام عند التحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ودراته فرائد عقدى

وبعد ذلك نجد من يزعم أن حافظًا لم ينفعل بثورة ١٩١٩ ، وهؤلاء لا يدركون معنى الفن الشعرى ، ويظنون أن الشاعر كاتب منشورات ثورية .

إن قصيدة مظاهرة السيدات أعظم سخرية ببريطانيا العظمى الامبراطورية التى كانت لاتغيب عن ممتلكاتها الشمس ، وكان اختيار حافظ للوزن الشعرى والقافية والألفاظ من أروع ما يمكن أن يقال .

وكانت قصيدة (مصر تتحدث عن نفسها) من أعظم القصائد التى قيلت فى حب مصر خلال هذا العصر.

ولم تجف الكلمات على لسان شاعر النيل ، فقال الرائعة البديعة فى الهجوم على استبداد إسماعيل صدقى باشا فى سنة ١٩٣٢ وهى السنة التى

رحل فيها الشاعر من عالم الفناء.

قد مر عام ياسعاد وعام　　وابن الكنانة فى حماه يضام

وقال لإسماعيل صدقى :

ودعا عليك الله فى محرابه　　الشيخ والقسيس والحاخامْ

لاهُمَّ أحْيِ ضميره ليذوقها　　غصصا وتنسف نفسه الآلام

كان حافظ هو شاعر الوطنية المصرية فى العصر الحديث وكان منفعلا بعواطف رجل الشارع حقًا ، ولكن كثيرين من الكتاب حاولوا سلبه هذا الامتياز الظاهر لسبب أو لآخر. فقد حاول الدكتور محمد صبرى السربونى رحمه الله أن يسلب من حافظ إبراهيم لقب (شاعر الوطنية ومشهر دنشواى فى البرية) ويمنح هذا اللقب لشوقى تعصبا منه لأمير الشعراء الذى لم يدع لنفسه ذلك . بل إن هذا القول لايزيد شوقى علوًّا ، وقد كانت له روائع فى حادثة دنشواى لها طعم آخر غير مذاق قصائد حافظ .

لقد حاول كثيرون ومنهم طه حسين وأحمد أمين وزكى مبارك البحث حول تأثير الوظيفة ورتبة البكوية على حافظ ، وهم معاصرون له ، وأحكامهم غير جائزة ولابد من إعادة النظر فيها كما رأيت ، فقد ظل حافظ صوتا للوطنية المصرية حتى عام ١٩٣٢ ، وهو عام وفاته وتركه لدنيانا ، كما أنه لاوجه لربط حافظ بشوقى دائما بمناسبة أو بغير

مناسبة ، بل يجب تحديد العلاقة بين الشاعرين ، وقد ضج شاعر النيل نفسه من هذه الحكاية فى حياته ، وقال كلمته الساخرة التى رويتها لك :
– الناس يقولون حافظ وشوقى كما يقولون (سميط وبيض) .

الملحمة العمرية :

كان صالح مجدى تلميذ رفاعة رافع الطهطاوى وكاتب ترجمة حياته ، أول من نظم الشعر الملحمى فى الأدب المصرى الحديث ، ولكن مجدى لم يكن شاعرًا ، بل كان نظاما على طريقة عصره ، وقد كتب منظومات تروى ملاحم التاريخ المصرى منذ عهد الفراعنة حتى عهد الخديوى سعيد باشا ، وقد لحنت هذه المنظومات على أنغام الموسيقات العسكرية .

ثم جاء شوقى فكتب قصيدته الملحمية الشهيرة (كبار الحوادث فى وادى النيل) ، وهى القصيدة التى ألقاها فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ ، ويقول فى مطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

وفى هذه الملحمة التاريخية يحكى أمير الشعراء تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة حتى الحملة الفرنسية .

وهذا اللون من الشعر أو النظم جديد فى الأدب العربى وقد عرف صالح مجدى وأحمد شوقى هذا الشعر الملحمى بسبب الثقافة الفرنسية التى تعلمها .

ولكن حافظ إبراهيم خرج على الناس بقصيدة ملحمية إسلامية هى العمرية الشهيرة ، وهذا هو الجديد فى الموضوع ، لأن القصيدة كلها أو الملحمة تتناول شخصية واحدة . هى شخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد أقيم احتفال خاص فى مدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز لينشد فيه حافظ قصيدة (عمر بن الخطاب) وكان ذلك فى مساء يوم الجمعة ٨ فبراير ١٩١٨ .

وهذه الملحمة تبلغ ١٨٦ بيتًا من الشعر على روى واحد وقافية واحدة ، وفيها البيت الذى هز وجدان الشعب المصرى وشعوره فحفظه العامة قبل الخاصة .

رأى الجماعة لاتشقى البلاد به
رغم الخلاف . ورأى الفرد يشقيها

كانت شخصية عمر عند حافظ تمثل النجاة للشعب المصرى ، وهكذا كانت هذه الشخصية المثالية الفريدة عند العقاد فكتب أول كتب العبقريات الإسلامية وسماه (عبقرية عمر) ، فالتقى الصديقان الودودان حافظ إبراهيم وعباس محمود العقاد عند نقطة واحدة هى النظر إلى

شخصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نظرة عصرية ترتبط فى الواقع بكل مآسى الحياة المصرية التى كانت تفتقد العدل والديمقراطية والحكم الصالح .

يقول حافظ فى العمرية الشهيرة سنة ١٩١٨ :

ما الاشتراكية المنشود جانبها بين الورى غير مبنى من مبانيها
فإن نكن نحن أهليها ومنبتها فإنهم عرفوها قبل أهليها

وهو يقصد أن المسلمين عرفوا الاشتراكية قبل أن يعرفها من يدعون إليها فى العصر الحاضر .

ويقول حافظ عن الأقوياء والضعفاء .

فما القوى قويًّا رغم عزته عند الخصومة والفاروق قاضيها
وما الضعيف ضعيفًا بعد حجته وإن تخاصم واليها وراعيها

لقد فتح حافظ باب المعاصرة فى النظر إلى الشخصيات والقيم الإسلامية ، وهذه وحدها فضيلة تحسب له كشاعر أقتفى أثره كبار

الكتاب مثل العقاد ، وطه حسين والدكتور محمد حسين هيكل ، وغيرهم ممن التفتوا إلى الكتابات الإسلامية

إن النظرة العابرة للمحمة (عمر بن الخطاب) أو العمرية ، تؤكد أن حافظًا لم يكن يقصد سرد تاريخ حياة أمير المؤمنين ، ولكنه كان يقصد إلى بعثه مرة أخرى فى عصرنا الحاضر ، وهو يقول على لسان عمر !

وقال قولة حق أصبحت مثلا
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم
فنمت نوم قرير العين هانيها

ثم يصيح شاعر النيل فى نشوة قائلا !

يارافعًا راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيرًا من محبيها

لم تنل هذه الملحمة حقها فى أجهزة الإعلام والثقافة ، مع أنها دراما رائعة تصل لعمل فنى عظيم .. ولكن ماذا نقول عن هذا الشاعر العظيم المظلوم .

عندما قال العقاد إنه صناجة مصر الذى يغنى لها عشقا وحبًا وهيامًا ، عارضه الدكتور محمد صبرى السربونى وقال إن شوقى هو صناجة مصر . مع أن أمير الشعراء لم يكن فى استطاعته برغم عبقريته

إلقاء قصيدة من قصائده ، وكان الشاعر على الجارم هو الذى يتصدى لإلقاء قصائد شوقى فى الاحتفالات والمناسبات والمنتديات .

رحم الله الجميع ، ورحم الله شيخى أمين الخولى ، فقد كان يقول لى إن المعاصرة صعبة ، وإن المتعاصرين من الأدباء والشعراء يتقاتلون ولا يلقى واحد منهم السلاح حتى يتوفاهم الله . ثم يأتى جيل جديد يعيد النظر فى أعمالهم ، ويملك إصدار الأحكام على أشعارهم وكتاباتهم بعيدا عن الهوى .

ولذلك فإننى أدعو إلى إعادة النظر فى أشعار شاعر النيل الذى ظلموه بسبب شوقى مع أن أمير الشعراء فجع فى صاحبه حافظ عندما عرف نبأ وفاته ، وقال وهو جالس على مائدة مقهى عند شاطئ الإسكندرية يقرأ نعى شاعر النيل فى جريدة البلاغ فقال :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى
يا منصف الموتى من الأحياء

ثم رحل أمير الشعراء ليلحق بصاحبه شاعر النيل بعد شهور ، وأصبحا شريكين حتى فى الذكرى .

حافظ والشعر التمثيلى

لم يكن حافظ مستعدًا لتأليف المسرحيات الشعرية ، وقد كتب تمثيلية واحدة من فصل واحد ، ولم يكن ذلك بسبب قصور خياله أو عدم قدرته على إدارة الحوار بين أبطال المسرحية عن طريق الشعر . ولكن حياته البوهيمية وانطلاقه هائمًا فى الدنيا كان السبب فى ذلك لأن هذا الفن يحتاج إلى تخطيط وتفكير ودراسة وكتابة . ولم يكن حافظ يكتب الشعر ولكنه كان يقول الشعر ويحفظه وينشده قبل أن يكتبه .

قال حافظ تمثيلية (جريح بيروت) فى سنة ١٩٠٢ عقب ضرب الأسطول الإيطالى لمدينة بيروت انتقامًا من الأتراك فى عهد نشوب الحرب الطرابلسية التى وقعت بين الإيطاليين والترك . ويدور الحوار فى هذه المسرحية ذات الفصل الواحد بين جريح من أهل بيروت وزوجته ليلى ، وطبيب ، ورجل عربى .

ويلتزم حافظ بالوزن فى مقاطع الحوار كلها ، ولكنه يغير القافية . وبرغم ارتباط الحوار ، فإن هذه التمثيلية تشكل مجموعة قصائد شعرية حشرها شاعر النيل بغير مناسبة فى مسامع الحوار الشعرى .

يقول على لسان الجريح :

ياليتنى لم أعاجل	بالموت قبل الأوان
حتى أرى الشرق يسمو	رغم اعتداء الزمان
ويسترد جلالاً	له ورفعه شان
وليعلم الغربُ أنا	كأمة اليابان
يا قوم إنجيل (عيسى)	وأمة القرآن
لا تقتلوا الدهر حقدا	فالملك للديَّان

ويقول على لسان العربي :

فيا (أدبرية) مهلاً	أين الذى تدعينا
ماذا تريدين منا	والداء أمس دفينا
أين الحضارة إنا	بعيشنا قد رضينا
لم نؤذ فى الدهر جارًا	ولم نخاتل خدينا

ومع ذلك فقد كانت محاولة من محاولات حافظ لكتابة نص للمسرح الشعرى . وقد تصلح هذه التمثيلية للتمثيل الإذاعى .

الهجريات

قال لى الصديق الراحل الأديب راشد رستم : إن شباب المدارس العليا رأوا أن الناس يحتفلون برأس السنة الميلادية سواء فى ذلك المسيحى والمسلم ، ولكن أحدًا لا يحتفل برأس السنة الهجرية . فاقاموا أول احتفال بهذه المناسبة فى حديقة الأزبكية .

يقول زكى مبارك :

– ما أذكر أن الشعراء كانوا يهتمون بالعام الهجرى فينظمون القصائد فى استقباله كما كانوا يصنعون فى استقبال النيروز وإنما هى سنة حسنة نشأت فى مصر ودعا إليها فريق من شباب الحزب الوطنى ، وعلى رأسهم (إمام واكد) وقد استطاع أولئك الشباب أن يحملوا الحكومة على جعل اليوم الأول عطلة رسمية وهى الفرصة التى أتاحت لحافظ أن يبتكر هذا الفن الجديد .

ظل حافظ يستقبل هلال المحرم بقصيدة جديدة كل عام ، وأصبحت هذه ظاهرة جديدة فى الشعر الحديث ولكن شاعر النيل لم يستمر فى ذلك .

وهجريات حافظ تمثل إتجاهات الرأى العام المصرى فى الداخل والخارج ، وهى قصائد سياسية وليست دينية كما يتبادر إلى الذهن .

وفى سنة (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨) صدر قانون المطبوعات فى مصر . وقيدت حرية الصحافة ، فقال حافظ فى قصيدته الهجرية .

مالى أنوح على الصحافة جازعًا
ماذا ألم بها وماذا أحدقا
قصّنوا حواشيها وظنوا أنهم
أمنوا صواعقها فكانت أصعقا

كما قال فى هذه الهجرية !

عار على ابن النيل سبّاق الورى
مهما تقلّب دهره أن يُسبقا
أو كُلما قد قيل جمع شملهم
لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا

لقد كانت هذه القصائد الهجرية تأريخًا شاعريًا للحياة المصرية فى ذلك العصر ، وكانت كل قصيدة منها تقدم حسابا عن تاريخ العام الهجرى السابق حين ترصد أحداثه فى أبيات من الشعر العذب الرائق .

جناية شوقى على حافظ

فى سنة ١٩١٧ عندما كان شوقى فى المنفى بالأندلس - عرض رئيس تحرير الأهرام دواد بركات على حافظ إبراهم ثلاثة أبيات وردت باسمه فى كتاب من أمير الشعراء .

(من الغائب إلى المقيم)

ياساكنى مصر إنّا لا نزال على
عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا

هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا تبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

ورد شاعر النيل على أمير الشعراء قائلا :

(من المقيم إلى الغائب)

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صادٍ ويسق رُبا مصر ويسقينا

والله ما طاب للأصحاب مورده
ولا ارتضوا بعده من عيشكم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه
وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

وعندما أقيم الاحتفال بتنصيب شوقى أميرا لشعراء العرب فى سنة ١٩٢٧ ، أنشد حافظ قصيدته فى الحفل . وعندما قال :

أمير القوافى قد أتيت مبايعًا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وثب شوقى من كرسيه وقبل حافظا فى خديه .

وبرغم ذلك فقد جنى شوقى على حافظ جناية فظيعة . ولم يكن ثراء شوقى هو السبب كما يتخيل بعض النقاد ، فقد رحل شوقى بغناه ، ورحل حافظ بفقره منذ نصف قرن من الزمان ، ومازالت جناية شوقى على حافظ قائمة حتى بعد الموت ، كما ذكرت لك فى هذه الصفحات القليلة .

ماهو السبب فى ذلك ؟

إنه صراع العبقرية بين الشاعرين الندين ، ولم يحدث هذا الصراع بين شاعرين فى العصر الحديث غير حافظ وشوقى وقد حدث مثل هذا الصراع بين جوته وشيللر كما ذكرت لك ، ولكنهما تصافحا فى النهاية بعد

موتهما وأقيم لهما تمثال واحد تشابكت فيه الأيدى ، وهو التمثال المقام في الميدان أمام باب مسرح (جوته وشيللر) فى مدينة (ڤايمار) الألمانية . ومع ذلك ظلت شهرة (جوته) أكبر من شهرة (شيللر) .. وهكذا حدث مع شوقى وحافظ ، .

ترى .. هل يتصافح الشاعران بعد خمسين عامًا من الرحيل فى تمثال واحد ينحته فنان عبقرى ويصنعه ويضعه على صدر مصر .

صدر من هذه السلسلة :

العنوان	المؤلف
١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د . زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د . عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د . أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د . مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د . نبيلة إبراهيم سالم
١٤م – عيون تكشف المجهول	د . محمد عبد الهادى
١٥ – الحضارة	د . أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى
١٧ – المساواة فى الإسلام	د . محمد بديع شريف
١٨ – القصة القصيرة	د . سيد حامد النساج
١٩ – عالم النبات	د . مصطفى عبد العزيز مصطفى
٢٠ – العدالة الاجتماعية فى الإسلام	أنور أحمد
٢١ – السينما فن	صلاح أبو سيف
٢٢ – قناصل الدول	أحمد عبد المجيد
٢٣ – الأدب العربى وتاريخه	د . أحمد الحوفى
٢٤ – الكتاب والمكتبة والقارئ	حسن رشاد
٢٥ – الصحة النفسية	د . سلوى الملا

٢٦ – طبيعة الدراما	د . إبراهيم حمادة
٢٧ – الحضارة الإسلامية	د . على حسنى الخربوطلى
٢٨ – علم الإجتماع	د . فاروق محمد العادلى
٢٨م– روح مصر فى قصص السباعى	حسن محسّب
٢٩ – القصة فى الشعر العربى	ثروت أباظة
٣٠ – العمارة الإسلامية	د . كمال الدين سامح
٣١ – الغلاف الجوى	د يوسف عبد المجيد فايد
٣١أ– محمود حسن اسماعيل	د . عبد العزيز الدسوقى
٣٢ – التاريخ عند المسلمين	محمد عبد الغنى حسن
٣٣ – الخلق الفنى	د . مصرى عبد الحميد حنوره
٣٤ – البوصيرى المادح الأعظم للرسول	عبد العال الحمامصى
٣٥ – التراث العربى	عبد السلام هارون
٣٦ – العودة الى الإيمان	أحمد حسن الباقورى
X ٣٧ – الصحافة مهنة ورسالة	د . خليل صابات
X ٣٨ – يوميات طبيب فى الأرياف	د . الدمرداش أحمد
٣٩ – السلام وجائزة السلام	عثمان نويه
٤٠ – الشريعة الإسلامية	المستشار عبد الحليم الجندى
٤١ – ثقافة الطفل العربى	جمال أبو رية
X ٤٢ – اللغة الفارسية	د . محمد نور الدين عبد المنعم
٤٣ – حضارتنا وحضارتهم	د . عبد المنعم النمر
X ٤٤ – الأمثال الشعبية	محمد قنديل البقلى
٤٥ – التعريف بالاقتصاد	د . حسين عمر
٤٦ – المستوطنات اليهودية	حسن فؤاد
٤٧ – بدر والفتح	محمد فرج
٤٨ – الفلسفة والحقيقة	د . عبد الحليم محمود
٤٩ – الطب النفسى	د . عادل صادق
٥٠ – كيف نفهم اليهود	د . حسين مؤنس
٥١ – الفن الإذاعى	د . فوزية فهيم

٥٢ – الكتابة العربية	محمد شوقى أمين
٥٣ – مرض السكر	د . أحمد غريب
٥٤ – شوقى أمير الشعراء ... لماذا ؟	فتحى سعيد
٥٥ – الفلسفة الإسلامية	د . أحمد عاطف العراق
٥٦ – الشعر فى المعركة	حسن النجار
٥٧ – طه حسين يتكلم	سامح كريم
٥٨ – الإعلام ولغة الحضارة	د . عبد العزيز شرف
٥٩ – تاجور شاعر الحب والحكمة	على شلش
٦٠ – كوكب الأرض	د . فرخندة حسن
٦١ – السير الشعبية	فاروق خورشيد
٦٢ – التصوف عند الفرس	د . إبراهيم شتا
٦٣ – الرومانسية فى الأدب الفرنسى	د . أمال فريد
٦٤ – القرآن وحياتنا الثالثة	محمود بن الشريف
٦٥ – التعبيرية فى الفن التشكيلى	د . نعيم عطية
٦٦ – ميراث الفقراء	فؤاد شاكر
٦٧ – العمارة والبيئة	المهندس حسن فتحى
٦٨ – قادة الفكر الاقتصادى	د . صلاح نامق
٦٩ – المسرح الغنائى العربى	محمود كامل
٧٠ – الله أم الطبيعة	د . يوسف عز الدين عيسى
٧١ – بحر الهواء الذى نعيش فيه	د . مدحت إسلام
٧٢ – الأدب الفرنسى فى عصر النهضة	د . رجاء ياقوت
٧٣ – الحرب ضد التلوث	رجب سعد السيد
٧٤ – القصة والمجتمع	يوسف الشارونى
٧٥ – المنتظرون الثلاثة	عبد الله الكبير
٧٥م – محمود أبو الوفا	فتحى سعيد
٧٦ – العسكرية الإسلامية	لواء / جمال الدين محفوظ
٧٧ – النفايات الذرية	د . محمد عبد الله بيومى
٧٨ – الإعلام والنقد الفنى	د . أحمد المغازى

العنوان	المؤلف
٧٩ – المسرح الأمريكي	د . عبد العزيز حمودة
٨٠ – زحف الصحراء	د . محمد فتحي عوض الله
٨١ – مشاكل الطفل النفسية	د . كلير فهيم
٨٢ – الأدب التركي	د . حسين مجيب المصري
٨٣ – مضادات الحيوية	د . محمد صادق صبور
٨٤ – الرواية الإنجليزية	د . إنجيل بطرس
٨٥ – الضحك فلسفة وفن	جلال العشري
٨٦ – الاستثمارات الأجنبية	د . عبد الواحد الفار
٨٧ – لغتنا الجميلة	فاروق شوشة
٨٨ – الحرب عند العرب	د . عبد الرحمن زكي
٨٩ – لئلا تحترف البكاء	نشأت التغلبي
٩٠ – الإسلام وروح العصر	د . حسين فوزي النجار
٩١ – التراث الشعبي	د . عبد الحميد يونس
٩٢ – علم المنطق .	د . محمد مهران
٩٣ – القلب وتصلب الشرايين	د . رجب عبد السلام
٩٤ – فن الخزف	سعد الخادم
٩٥ – الإعجاز القرآني	د . محمد أحمد العزب
٩٦ – سفراء النبي	د . مختار الوكيل
٩٧ – ساعة مع القرآن العظيم	د . عبد العظيم المطعني
٩٨ – لغة الصحافة المعاصرة	د . محمد حسن عبد العزيز
٩٩ – الكيمياء الصناعية	د . محمد الحلوجي
١٠٠ – الدراما الأفريقية	د . علي شلش
١٠١ – وكالات الأنباء	شفيق عبد اللطيف
١٠٢ – الحدوتة والحكاية الشعبية	محمد فهمي عبد اللطيف
١٠٣ – ألف باء السياسية	د . أحمد حمدي محمود
١٠٤ – تطور الشعر في الغناء العربي	غطاس عبد الملك
١٠٥ – الحرب الإلكترونية	عبده مباشر
١٠٦ – البطل في القصة المصرية	حسن محسب

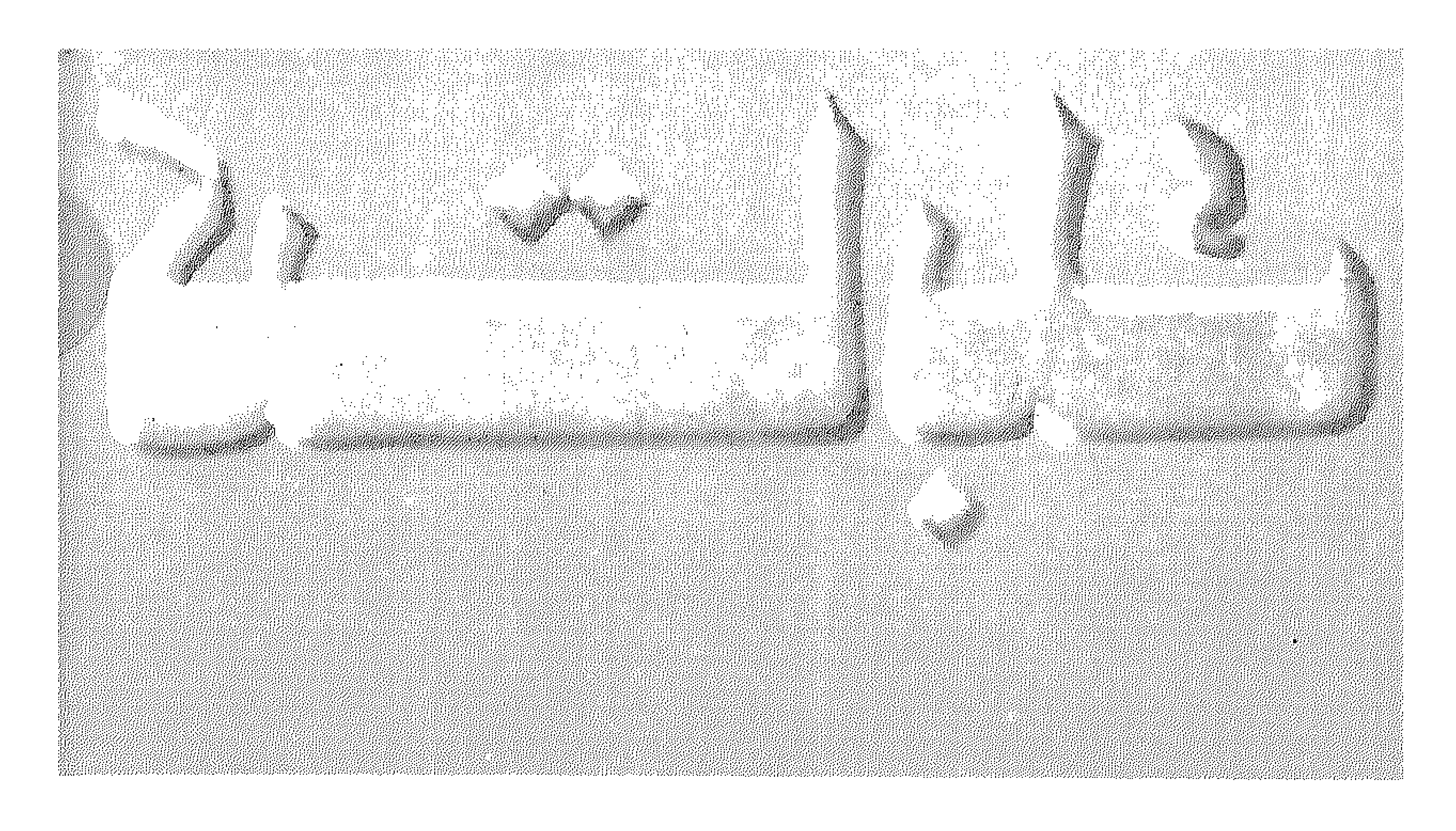
العنوان	المؤلف
١٠٧ – عجائب الحشرات	د . محمد طلعت الأبراشى
١٠٨ – الإذاعة خارج الحدود	أنور شتا
١٠٨م– مصر الخضراء	د . فاروق الباز
١٠٩ – القانون الطبيعى وقواعد العدالة	عبد السميع الهراوى
١١٠ – فن التصوير السينمائى	أحمد الحضرى
١١١ – الطـاقة	د . محمد فتحى عوض الله
١١٢ – الفن والمرأة	شريفة فتحى
١١٣ – نظام الحكم فى الإسلام	د . مصطفى كمال وصفى
١١٤ – رحلتى مع الرواية	فتحى أبو الفضل
١١٥ – التطـــور	د . منى فريد
١١٦ – الأدب والمواطن	عباس خضر
١١٧ – آفاق جديدة فى التعليم	د . طلعت حسن
١١٨ – الفن القبطى	د . باهور لبيب
١١٩ – اجتماعيات التنمية	د . محمود الكردى
١٢٠ – المسرح الشامل	أحمد زكى
١٢١ – رسائل إخوان الصفا	د . على السكرى
١٢٢ – الرمزية الصوفية فى القرآن	د . سيد عبد التواب
١٢٣ – الحب فى الشعر الفارسى	د . عفاف زيدان
١٢٤ – الإنسان والعـــلم	د . عبد العزيز أمين
١٢٥ – نظرات فى القصة القصيرة	حسين القبانى
١٢٦ – الفراعنة أساطين الطب	محمد عبد الحميد بسيونى
١٢٧ – كهــف الحكيم	فتحى العشرى
١٢٨ – فنون الزجل	محمد قنديل البقلى
١٢٩ – للألبان فلسفة وأسرار	د . مصطفى الديوانى
١٣٠ – الدراما اليونانية	كمال ممدوح حمدى
١٣١ – الأسرة فى الدين والحياة	المستشار محمد عبد الفتاح الشهاوى
١٣٢ – الأدب والحضارة	د . نعمات أحمد فؤاد
١٣٣ – الجراحة علم وفن	د . عوض الدحة

١٣٤ – علم النفس والجريمة	المستشار محمد فتحى
١٣٥ – فن المقال الصحفى	د. عبد العزيز شرف
١٣٥م – النقد الفنى	د. نبيل راغب
١٣٦ – الإخراج السينمائى	د. فاروق الرشيدى
١٣٧ – فلسفة الجمال	د. أميرة حلمى مطر
١٣٨ – النظام المالى فى الإسلام	د. إبراهيم فؤاد أحمد
١٣٩ – الفن التأثرى	صبحى الشارونى
١٤٠ – الكيمياء عند العرب	د. مدحت إسلام
١٤١ – الأزياء الشعبية	سعد الخادم
١٤٢ – زدنى يافضيلة الشيخ	صلاح منتصر
١٤٣ – الدراما الروسية	د. فوزى فهمى
١٤٤ – حيوانات ما قبل التاريخ	د. عبد الهادى أحمد
١٤٥ – النقد السينمائى	خميس خياطى
١٤٦ – الصحافة العسكرية	محمد عبد الحميد
١٤٦م – كأس العالم	عادل شريف
١٤٧ – خبز وحرية	إبراهيم الدسوقى
١٤٨ – التعليم مشروع اقتصادى	د. أميل فهمى شنودة
١٤٩ – فن التمثيل المسرحى	أحمد زكى

رقم الإيداع	١٩٨٢/٤٥٩٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٢٠٤-٥ ISBN

١/٨٢/٢٠٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

أسهرتني الحادثات وقد
نام حتى هاتف السَّحر
وكأن الليل أقسم لا
ينقضي أو ينقضي عمري
(حافظ إبراهيم)